

معين بسيسو مارد من المنايا

فرسان المقاومة الفلسطينية كثيرون.. ومعظمهم تعرض للنفي والسجن والتشريد.. وكانوا جميعاً في موقع الصمود والتمرد على مؤامرات الكيان الصهيوني.

وهناك دراسات كثيرة في أشعار هؤلاء الشعراء خاصة تلك التي تناولت المقاومة ورفض الاستسلام.

لكننا لسنا في مجال رصد شامل لشعراء المنايا والسجون.. وإنما نحن نقوم باختيار بعض هذه النماذج التي تتنوع تجاربهم ومواقفهم.

ومن هؤلاء شاعرنا معين بسيسو الذي ولد في غزة عام 1926 وأنهى تعليمه الابتدائي والثانوي في كلية غزة عام 1948.

وينتبه معين بسيسو إلى قضية وطنه.. فبدأ ينشر أعماله الشعرية والنثرية في مجلة الحرية بيافا.

ثم التحق عام 1948 بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وتخرج فيها عام 1952 من قسم الصحافة.

ثم انخرط في العمل الوطني.. وعمل بالصحافة والتحق بالحزب الشيوعي في مصر.. وسجن مع شيوعي مصر مرتين (1955-1957) و(1959-1963) حيث استقر الحال في السجن الحربي في الواحات الخارجة..



وكان معين في شبابه يتقدم المظاهرات بصدر مكشوف يستقبل به الموت ويهتف بشعره رافضاً توطين أهله في سيناء.. أو المخيمات أو الشتات ويعلن ألا بديل عن أرض فلسطين.

ويتعرض للاضطهاد والاعتقال.. لكنه كان يخرج من كل تجربة أكثر قوة وشجاعة ووطنية.

أخذ معين يحث على النضال والمقاومة والثورة والتمسك بالأرض هو وشعراء آخرون مثل: (كمال ناصر - فدوى طوقان - حسن البحيري - عبد الكريم الكرمي - محمود درويش).. ولا يعبئون بالسجن والأغلال.

وقد أصدر معين بسيسو عدة أعمال شعرية منها: كراسة فلسطين - مارد من السنابل - الأشجار تموت واقفة - فلسطين في القلب - حينما تمطر الأحجار.

وله عدة دراسات نقدية.. كما كتب المسرح مثل: مأساة جيفارا - ثورة الزنج.. وحصل على جوائز عالمية وعربية.. ووسام فلسطين الثورة.

ثم يموت معين بسيسو مغترباً في لندن إثر أزمة قلبية حادة في 23 / 1 / 1984.. لكن إسرائيل منعت دفنه في مسقط رأسه - غزة - فدفن في مقبرة آل بسيسو بالقاهرة.

وقد تنقل معين بسيسو بين بلاد عربية وأجنبية كثيرة منفياً عن بلده فلسطين.. ففي سوريا عمل بجريدة الثورة.. وفي لبنان بمجلة المعركة.. وفي مصر بالأهرام.

وتدور أعمال معين بسيسو حول مأساة فلسطين وشئون الشعب الفلسطيني وقضيته العالقة.. ويصور في شعره مأساته هو لكونه أحد أفراد



هذا الشعب المقهور.. والذي نال الاغتراب والتشتت.. لكنه يظل مصرّاً
على المقاومة.

إنه يدعو إلى مواصلة المعركة فيقول:

أنا إن سقطت فخذ مكانى يا رفيقى فى الكفاح
واحمل سلاحى لا يخفك دمنى يسيل من السلاح
وانظر إلى شفتىّ أطبقنا على هوج الرياح
وانظر إلى عينيّ أغمضتا على نور الصباح
أنا لم أمت .. أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح

وهذه هى قيمة الشهادة فى ميدان القتال.. فالشهيد حي فى عيون رفاقه
لأنه أطبق شفتيه على الرياح وعينيه على نور الصباح.
أما صوته فلا يزال يرن فى آذان رفاقه باسم الجراح.. ويهدده الأعداء
بالسجن والموت فيصرخ فى تحد:

أنا لا أخاف من السلاسل فاربطونى بالسلاسل
من عاش فى أرض الزلازل لا يخاف من الزلازل
لمن المشانق تنصبون.. لمن تشدون المقاصل
لن تطفئوا - مهما نفختم فى الدجى - هذى المشاعل
الشعب أوقدها وسار بها قوافل فى قوافل

ثم يطرق أبواب القضية بقوة.. ليعلن أن فلسطين ليست هماً يمكن
الاستغناء عنه وإنما هى (فى القلب):



يا أيادي

ارفعى عن أرضى الخضراء ظل السلسلة

واحصدى من حقل شعبى سنبله

فأنالـم أحضن الخبز ومن قمح بلادى

منذ أن هبت رياح مثقلات بالجراد

نهشت أرض بلادى

وجماهير بلادى

منذ أن شدوا إلى اللقمة من ساق غزالٍ

وعدا ملء الرمالِ

وهمُ قد غصبوا قوسى وسهمى ونصالى

وهمُ قد قطفوا زهر دمائى

غير أنى فى نماءٍ

فجذورى تتحدى الفأس فى أرض بلادى

وهى خضراء تنادى

يا أيادي

ارفعى عن أرضى الخضراء

أغلال الجراد

وحصادى.. إلى حصادى



أدرك معين بسيسو هذا القهر الذى أمطره وأمطر شعبه فماذا يفعل.. إنه لا يستسلم لأنه (فى نماء) برغم كل شئ لأن جذوره تتحدى الفأس فى الأرض.. وهذه الجذور لم تجف.. فما زالت خضراء.

إنه الأمل فى التحرر من الأغلال والقيود وهو صابر متحمل كل المشاق.. حتى ولو كان (السيف على العنق):

أخى لو شحذوا السيف على عنقى فلن أركع

ولو فى فمى الدامى حبال سياطهم تُنقَع

فلن أرجع عن فجرى.. لن أرجع.. لن أرجع

وقد أوشك أن يطلع.. قد أوشك أن يطلع

من الأرض التى من ثديها بركاننا يرضع

ما أجملها من صورة للأمل الذى يراود المناضلين.. وهو تحد قوى صامد أمام كل الاضطهاد والتشريد والقوة الغاشمة.

صحيح صارت خطاه دماءً وجثثا وشهداء.. لكنه كان يرى فى كل هذا بارقات الأمل والخلاص:

الضحايا قد عانقتها الضحايا

والأيادى تشابكت بالأيادى

فنهوضاً إلى النضال نهوضاً

لا يعيش البركان تحت الرماد



ولنُغَطِّ السَّاءَ بِالْعِلْمِ الدَّاءِ
مِى فِأَعْلَامِ شَعْبِنَا فِى زَيْدَادِ
وَلَنَسْرِ تَحْتَهَا خَطِى وَلَدَتَهَا
أُمّهَاتِ الْحَبَالِ وَالْأَصْفَادِ

وَحِينَمَا يَحْذِرُهُ الرِّفَاقُ مِنَ الْعَدُوِّ.. وَيَنْصَحُونَهُ بِالصَّمْتِ يَصْرُخُ فِى
شَمْوُخٍ:

الصَّمْتُ مَوْتُ

قَلْبَهَا وَمَت

فَالْقَوْلُ لَيْسَ مَا يَقُولُهُ السُّلْطَانُ وَالْأَمِيرُ
وَلَيْسَ تِلْكَ الضَّحْكَةُ الَّتِي يَبِيعُهَا الْمَهْرَجُ الْكَبِيرُ

لِلْمَهْرَجِ الصَّغِيرِ

فَأَنْتِ إِنْ نَطَقْتَ مَت

وَأَنْتِ إِنْ سَكَتِ مَت

قَلْبَهَا.. وَمَت

وَلَمْ يَصْمِتْ مَعِينٍ بِسَيِّسُو حَتَّى لَا يَمُوتَ وَهُوَ يَتَنَفَسُ هَوَاءَ الْحَيَاةِ..
وَيَهَاجِمُهُ الْجُنُودُ وَيَقْبِضُوا عَلَيْهِ.. وَيَتَوَجَّهُونَ بِهِ إِلَى زَنْزَانَةِ السِّجْنِ فَيَصِفُ
ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

أَنَا الْآنَ بَيْنَ جُنُودِ الطُّغَاءِ

أَنَا الْآنَ أُسْحَبُ لِلْمَعْتَقْلِ



وما زال وجه أبى ما ثلا
أمامى .. يسألنى بالأمل
وأمى .. وأمى .. أنين طويل
ومن حولها إخوتى يصرخون
ومن حولهم بعض جيراننا
وكل له .. ولد فى السجون
ولكننى رغم بطش الجنود
رفعت يدا أثقلتها القيود
وصحت بهم .. إننى عائد
بجيش الرفاق .. بجيش الرعود
نعم لن نموت نعم سوف نحيا
ولو أكل القيد من عظمنا
ولو مزقتنا سياط الطغاة
ولو أشعلوا النار فى جسمنا
نعم لن نموت ولكننا
سنقتلع الموت من أرضنا

والقارئ لأشعار معين بسيسو يجدها مشحونة بالمعنى والصور الفنية بما
يؤكد قدرته على الجمع بين إذكاء الشعور الوطني .. وفنية الشعر معا.



وهذه قصيدة تؤكد هذا الملمح في شعره (دائرة الطباشير الفلسطينية)

يقول فيها:

للشعراء

لون الشعر.. وللشهداء

لون فراش البحر

وللعشاق الباكين على قطرة ماء

لون طيور الماء

وللقتلة لون الخوذات البيضاء

ولون الدبابات البيضاء

يا أم على..

يا أم ثلاثة شهداء

ماذا تفعل شجرة ورد حمراء

في زمن الجدران البيضاء

يا أم على..

ما زال على الحائط حجرٌ

تكتبه شجرة ورد حمراء

ثم يقول:

الكرمل سافر



والقسطل سافر

يا عبد القادر.. يا عبد القادر

يسقط آلاف الشهداء

لكى يكتب حجرٌ أو طائر

إن الأرض هي الضيف

على مائدة الشاعر

يحفل شعره إذن بالمعنى والرمز المستلهم من التراث والأساطير الشعبية
والقصص الديني بما يؤكد عمق هويته العربية وإصراره على الصمود في
وجه العدو الذي أراد أن يمحو هذه الهوية بأسلحته وصلفه.

ونختتم هذه الأعمال الشعرية بقصيدة لها دلالاتها الخاصة حيث كتبها
في أثناء وجوده في سجن الواحات تحت قسوة الحياة والمعاناة.. يقول معين
بسيسو في قصيدته (المرتد):

وقع.. وقع

اسمك في ذيل الورقة وقع

وقع وتسلل

كاللص إلى بيتك واحذر

ظلك أن يقع على مصنع

فامضع ظلك منديلاً من سم واهرع

ثم يقول:



سجّانك أقبل

كالحفرة.. كالمعول

أين ستمضى..

ألبيتك؟

بيتك في ظهرك خنجر

أطفلك؟

طفلك فوق صليب الأوراق

بدميته سمر

ستساق إلى الشاعر فتعثر

في ظل السجان.. تعثر

أين ستمضى والريح تطير

خطواتك أسطر ورقة

ويرحل معين بسيسو تاركا لنا عصارة حياته ومقاومته برغم المنفي
والسجن والأغلال.